

الآراء الأدبية والبلاغية في كتاب عيار الشعر لابن طبا طبا

د.معتصم يحيى آدم يحيى - أستاذ مساعد بجامعة النيل الأبيض -كلية التربية

motasimyahya123@gmail.com

إعداد : د. وداعة عبدالله علي سرار - أستاذ مساعد بجامعة النيل الأبيض -كلية التربية

widaasarar@gmail.com

المستخلص :-

أن للأدب والبلاغة حيزاً كبيراً في أقسام اللغة العربية، وهما من الأقسام التي أولاها النقاد ودارسو الأدب العربي اهتماماً كبيراً وأوردوا فيها آراءً كثيرةً ومختلفةً، وكان من بين هؤلاء النقاد ابن طبا طبا صاحب كتاب عيار الشعر الذي أفرد مساحة للأدب والبلاغة بآراء وأفكار واضحة أسهمت في الحياة الأدبية، هدفت الدراسة إلى توضيح آراء ابن طبا طبا في بعض المسائل النقدية التي تباينت فيها آراء النقاد، اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على عرض المسألة وإبراز الشواهد على تنوع الأساليب في إيراد الآراء الأدبية والبلاغية التي أوردها الكاتب في عيار الشعر، توصلت الدراسة إلى عدّة نتائج منها: أن لابن طباطبا آراءً نقدية أسهمت في الأدب العربي؛ وذلك من خلال اهتمامه بالوزن في الشعر أكثر منه في القافية، وأنّ اللفظ والمعنى عنده متكاملان كالروح والجسد، أوصت الدراسة الباحثين والدارسين إلى إفراد دراسات ووقفات مع هذا الأديب والناقد لاسيما آراؤه البيانية .

Abstract:

Literature and rhetoric have considerable position in the Arabic language sections and they are greatly concerned by the critics and Arabic literature students. They concern them greatly and have a lot of and various standpoints about them. One of that critics was Ibn Taba Taba the author of ‘Meter of Poetry’ in which he has focused on literature and rhetoric giving clear standpoints and ideas that contributed in the literature life. This study aims at explaining Ibn Taba: standpoints about some critical issues in which critics have various standpoints. The study adopted the descriptive analytical approach to conduct the study. The approach explores the matter and revealing the documents that proving the diversity of styles in telling the literary and rhetoric standpoints which was presented by the author the ‘Meter of Poetry’. The study found out a lot of results , among the best of them: Ibn Taba has critical standpoints that contributed in Arabic literature via his concern in meter in poetry more than rhythm. The form of the word and the meaning are completing to each other as body and sou. The study recommended the researchers and students to concern this author and critic specially is rhetoric standpoints.

الآراء الأدبية و البلاغية في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا:

التعريف بالكتاب (عيار الشعر):

يُعدُّ كتاب عيار الشعر من أهم الكتب النقدية التي كتبت في ذلك العصر، فقد تميَّز بثناء العطاء النقدي الصادر عن رجل متخصص تحدث عن الشعر على ضوء تجربته الشعرية ومعاناته في الإبداع الشعري، ويعتبر ابن طباطبا من أهم النقاد النظريين الذين بحثوا في ماهية الشعر ووظيفته، فهو يختلف في نهجه وفي تناول لموضوعاته عن سبقه من النقاد في دراسة الشعر ونقده.

الآراء الادبية والبلاغية في عيار الشعر :

1/ تعريف الشعر :

عرف ابن طباطبا في كتابه -عيار الشعر- الشعر بقوله : (الشعر – أسعدك الله – كلام منظوم بائن عن المنظور الذي يسعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به المنظم الذي إن عدل عن جهته محتته الأسماع وفسد الذوق) (9)

من الملاحظ في هذا التعريف أن ابن طباطبا قد جعل الفرق بين الشعر والنثر في الوزن فقط ولم يعط أي اهتمام للقافية , وإذا أتينا إلى تعريف الشعر عند القدماء للشعر نجدهم يعطوا القافية مكانة في تعريفهم للشعر من ذلك قول قدامة : "قول موزون مقفى يدل على معنى" (10)

ولكن تدخل القافية ضمن الوزن في قول ابن رشيق:(الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية وهو يشتمل على القافية وجالب لها الضرورة)(7)

مراحل العمل الأدبي عنده :

يرى ابن طباطبا من خلال كتابه عيار الشعر أن مراحل العمل الأدبي تتمثل في حد قوله:(فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثراً وأعد له مايلبسه أيان من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه بل يتعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله فإذا كملت المعاني وكثرت البيانات ووقف بينها بابيات تكون نظاماً لها وسلماً جامعاً لما يتشتت منها ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتيجته فكرته" (9)

فيستعصى انتقاده ويرمي ما هي منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني واتفقت له معنى آخر مصادق للمعنى الأول وكانت تلك القافية في المعنى الثاني منها في

المعنى الأول ونقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقص بعضه، وطلب لمعناه قافية شاذة ويكون كالنساخ الحاذق الذي يفوت ويشبه التفويض ويسويه وينثره ولا يهمل نفسه ويشيع كل ضيع منها حتى يتضاعف في العيان، وكانناظم الجواهر الذي يؤلف بيت النفيس منها والثمين الرائق ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها .

مما سبق ذكره عن مراحل العمل الأدبي عند ابن طباطبا في عيار الشعر يمكن أن نجمل القول العمل الأدبي يمر بأربع مراحل هي :

- 1/ تكون الفكرة في المذهب بصورة إنشائية والتفكير الذي يليها مع اختيار الألفاظ المناسبة والقافية والوزن.
- 2/ التعبير عن المرحلة وله من بيان شعرية دون ترتيب وتنسيق
- 3/ يرتب الشاعر الأبيات التي نظمها ونسقها تنسيقاً وجمعها ويتسلسل في ترتيبها حسب الفكر في الذهن حتى تكون مترابطة ومتسلسلة المواضيع .
- 4/ ثم في المرحلة الأخيرة يعمل على إزالة الأشياء التي تخل بالقصيدة أو ينتقدها ثم يخرجها في صورتها النهائية كاملة الفكرة والموضوع .

من خلال هذه المراحل التي يمر بها العمل الأدبي عند ابن طباطبا يمكن ملاحظة الآتي :

- 1/ ليس لزاماً على كل الشعراء أن يمروا بهذه المراحل، هنالك بعض الشعراء لا يجبرون هذا الأسلوب ويأتي شعرهم على سجيته؛ أي لا يهذب شعره ولا يرتبه بل يجعل فكرته في الأبيات الشعرية .
 - 2/ من الواضح أن ابن طباطبا في تقسيمه لمراحل العمل الأدبي كان حاذقاً ذا فكرة ثاقبة وهذا ناتج عن أنه ذا تجربة ويتضح لنا هذا أكثر إذا قمنا بالدراسة في شعره .
- البناء الفني للقصيدة في عيار الشعر :

البناء الفني من أهم مواضيع النقد الأدبي وكانت بداية الحديث فيه أفلاطون من بعده تلميذه أرسطو في كتابه "فن الشعر" وفيه أشار إلى أن يكون العمل الأدبي وحدة عضوية متماسكة مترابطة لا مجموعة من غير تماسك وترابط عضوية بينها وفي ذلك قال يجب أن يكون الفصل الأدبي واحداً وأن الأجزاء البيت إذا نقل أو بتر جزء انفراط عقد الكل وتزعزع لان ما يمكن أن يضاف دون نتيجة ملموسة لا يكون جزءاً من الكل(3)

أما في النقد العربي فقول ابن طباطبا فلا توجد إشارات واضحة أو طريقة فنية تقرب منها. إلا ما أشار إليه الجاحظ بقوله: (أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل المخارج فنعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً وجرى على اللسان كما يجري الدّهان) (5)

أما ابن طباطبا في عيار الشعر فقد وضع أهمية خاصة للبناء الفني للقصيدة إذ تجده تحدث عن الأمور الكفيلة لجعل القصيدة سوية مستقيمة مقبولة في مواضع مختلفة من كتابه (عيار الشعر) وهذا يدل على أن ابن طباطبا قد جعل الوحدة الفنية للقصيدة من أهم آرائه النقدية التي أوردها في عيار الشعر " إذ نجد أن حديثه سبقاً أدبياً لفهم واع دقيق للوحدة الفنية للشعر .

وأكبر ما يدل على ذلك قول محمد غنيمي هلال (لعل أروع ما ينعكس في نظرية الوحدة القصيدة الأرسطية في النقد العربي هو قول ابن طباطبا وأحسن الشعر ما ينظم القول انتظاماً) (13) وأيضاً قال الدكتور شوقي ضيف : (وكان ابن طبا طبا تنبيه في دقة إلى ما ورده ولازال يرده النقد في عصرنا من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة ولعل الغريب حقا أن اصطحاب النقد والبلاغة بعد ابن طبا طبا لم يتوسطوا في هذا الموضوع) (8)

أما الدكتور أحمد بدوي طبانة فقد قال : (إذا كان ابن طباطبا قد دعاء إلى أن يضع الشاعر بيت أبياته ما يربط بين هذه الأبيات حتى تنتسق القصيدة فذلك؛ لأنه دعا إلى الوحدة دعوة حادة وهو في ذلك يشبه آراء النقد المحدثين) (2).

أما حديث ابن طباطبا عن الوحدة الفنية للقصيدة فقد تمثل في الآتي :

1/ نبه الشعراء على الاهتمام بمطالع القصيدة وافتتاحها حتى تكون أقرب إلى ذهن السامع لتجد القبول عنده كما نبه أيضاً على الاهتمام بالترتيب والانتقال من موضوع إلى آخر أو من غرض إلى آخر يفتنه وحذف ودقة , حتى لا تكون القصيدة مجزأة كما قال عنها : " إن لها فصولاً كفصول الرسائل فتحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه) (9)

2/ جعل بن طباطبا في كتابه " عيار الشعر " قانوناً وميزاناً واضحاً لوحدة القصيدة وترابطاً وعدم إمكانية التقديم والتأخير فيها فالقصيدة المترابطة لا يمكن أن تقدم أو تؤخر بيتاً، لان ذلك يؤدي إلى عدم ترابطها وتنسيقها، أما القصيدة التي لا تكون أبياتها مترابطة أي كل بيت لا علاقة له بالبيت الآخر فيمكنه أن تقدم أو تؤخر فيها من غير أن يحس القارئ بذلك وفي هذا قال : " وأحسن الشعر ما يوضع فيه كل كلمة موضعها حتى يطابق المعنى الذي أريد له ويكون شاهداً مهما لا تحتاج إلى تفسير من غير ذاتها " (9)

3/ شبه القصيدة المتكاملة بالرسالة و الخطية المرتبطة بالاجزاء فكما أن الرسالة المنسقة المنظمة لا يمكن أن تقدم فيها

أو تؤخر من غير إخلال لها فلذلك القصيدة فعلى الشاعر أن يسلك منهج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفاتهم في مكاتبتهم فان للشعر فصولاً كفصول الرسائل) (9)

4/ من الواجب عند ابن طباطبا أن تكون القصيدة كالكلمة الواحدة تتراكب وتتربط حروفها مع بعضها البعض حتى تغطي كلمة واحدة فقال : " بل يجب أن تكون القصيدة كلها كالكلمة الواحدة في إشتباه أولها بآخرها نسيجاً وحسناً وفصاحةً وجزالة الألفاظ ودقة معاني وصواب تأليف"، ويكون خروج الشاعر كل معنى بصفة إلى غيره خروجاً لطيفاً ما شرحناه , التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم ألا تنافض في معانيها وفي مبانيها ولا تكلف في نسجها وتغتضي كل كلمة مابعداها , ويكون مابعداها متعلقاً بها مفتقراً إليها فإذا كان الشعر على هذا المثل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليه رواية (9)

5/ تحدث عن الملاءمة بين الألفاظ والمعاني وحسن التركيب وتهذيب القصيدة حيث قال: (فمن الأشعار محكمة منقحة أيقظة الألفاظ محكمة المعاني عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثراً لم نبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة الفاظها) (9)

6/ في آخر عيار الشعر عقد مقالاً بعنوان "تأليف الشعر " وضع فيه آراءه حول الوحدة الفنية للقصيدة قد دعاء الشعراء الي الاهتمام بتنسيق الأبيات وحسن مجاورتها وتجنب الحشو الذي لا فائدة منه قال : "وينبغي للشاعر أن يأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها كلامه فيها فينسي السامع المعنى الذي يسوق القول إليه , كما أنه يحترز ذلك (9)

اللفظ والمعنى وأقسام الشعر عنده :

سار ابن طباطبا على طريقة أكثر النقاد العرب الذين يفصلون بين اللفظ والمعنى ويرون أنهما أمران متقابلان وهذا الفصل عملية صناعية الهدف لإيضاح ووضع المقاييس الخاصة بكل قسم على حده . ومع أن ابن طباطبا فصل بين اللفظ والمعنى إلا أنه يرى وجوب التكامل بينهما، لأنهما مترابطان ترابطاً وثيقاً ثم يشبه المعنى بالروح واللفظ الجسد .

وعندما تحدث ابن طباطبا عن المراحل التي يمر بها النص الشعري فصل بين التفكير وبين التعبير الشعري إذا قال : " فإذا أراد الشاعر بناء القصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه فركزه واعد مايسلسه إيّاه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزاري الذي ليسلس له القول عليه) (9)

ثم أوجد مقابلات بين اللفظ والمعنى فاللفظ معرض للمعنى والمعنى روح واللفظ جسد له والألفاظ كسوة المعاني وهذا سيتبادر إلى الذهن سؤال : هل ابن طباطبا من أنصار اللفظ أم من أنصار المعنى ؟ ومن خلال فصله بينهما هل مال إلى أيّ منهما ؟

الواقع أن ابن طباطبا أولى اهتمامه بالطرفين إلى اللفظ والمعنى معاً إذ يرى أن للفظ قيمة وإن للمعنى قيمة أيضاً والحقيقة للبعض الأدبي حاجته عن إجتماعها وتوقفهما، وقد ناقش هذين الموضوعين في قوله : "

وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتصبح في غيرها وهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح البسه

أي بمعنى أن المعنى وحده لا يكفي فقد يعاب بمعرضه القبيح وجمال اللفظ وحده لا يكفي فقد ينتزل لمعني قبيح لا يستحق هذا الجمال اللفظي وهذا قال " والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه كما قال لبعض الحكماء الكلام جسد وروح وجسده النطق وروحه معناه " (9)

من خلال التشبيه المعنى بالروح واللفظ بالجسد والمعرض يوضح أنه يميل إلى جهة المعنى ولكن هذا التشبيه غير صحيح؛ لأنه وصفه للمعنى بالروح حكاية لأمر واقع لا ينكر أحد تم لأنه لم يهمل اللفظ بل أولاه عنايته أما أنصاره غير وزن إهتماماتهم على المعاني من غير النظر إلى التعبير عنهما كما يبدو ذلك واضحا من حديث الجاحظ عن ابن عمرو الشيباني في الحيوان (6)

وفي حقيقة الأمر أن ابن طباطبا يحاول الملاءمة بين اللفظ والمعنى، ويبدو ذلك واضحا من حديثه عن ملاءمة معاني الشعر لمعانيه حيث يقول : (فواجب علي صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لصيقة مقبول حسن مجتلية لمحبة السامع له والنظر بعقله إليه مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه والمتغرس في بدائعه، فتحسبه جسيماً ويحققه روحاً إلى أن يتقنه لفظ ويبدعه معنى ويتجنب إخراجَه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحاً ويبرزه مسخاً بل سوى أعضائه وزناً ويعدل أجزائه تأليفاً ويحسن صورته إهانة ويكثر رونقه إختصاراً ويكرم عنصره صنيعاً ويقيده بالقبول دقة ويحرضه جزالة ويدينه سلاسة وينأي به , وتعلم أنه نتيجة عقلية وتمرة ليه وصورة علمه الحاكم عليه أوله ويرجع تأثير الشعر في النفس وسيلة الي تكامل مقوماته اللفظية والمعنوية ويشبه بالغناء وحسن صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا متنوعة ومعقولة من الكدر ثم قبوله وإشتمال عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الالفاظ فإن إنكار الفهم على قدر نقصان أجزائه (9)

ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له الطرب مسمعه المتفهم لمعناه ولفظه من طيب الحانه فاما المقتصر على طيب اللحن من دون سواه فناقص الطرب)

من خلال ما سبق تتضح دعوته إلى الاهتمام باللفظ والمعنى معاً .

أقسام الشعر عنده :

لم يختلف ابن طباطبا كثيراً عن الذين سبقوه في تقسيمهم للشعر حيث نجده لم يقسم الشعر تقسيماً معيناً بل كان منهج ابن قتيبة في تقسيمه الرباعي ولم يكتف بالنظر إلى اللفظ والمعنى بل أضاف إلى ذلك نظرات في جوانب أخرى كالنظرات إلى القافية الوزن .

وفي بداية كتابة عيار الشعر نجده قد قسم إلى قسمين واعتبرهما أساساً في تقسيمه للشعر ولم يخلُ حديثه عن المعنى واللفظ والتقسيم الأول إذ يقول: (فمن الأشعار أشعار محكمة متبقية أنيقة الألفاظ حكمة المعاني عجيبة التأليف إذا إنفضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة الفاظها .⁽⁹⁾

وفي حديثه عن القسم الثاني أيضاً لم يعر تقسيمه عن المعنى واللفظ وهذا دليل على ماسبق الحديث عن إهتمامه بالمعنى واللفظ إذ يقول في القسم الثاني: (ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الأسماع والافهام إذا مرت صفحا , فاذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها , وزيفت الفاظها ومحت حلاوتها ولم يصلح نقضها البناء يستأنف منه إذ يقول في القسم الثاني : " ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة تروق الأسماع والإفهام إذا مرت صفحا , فاذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها , وزيفت الفاظها ومحت حلاوتها ولم يصلح نقضها البناء يستأنف منه) (9)

ومما لا جدال فيه هو أن ابن طباطبا لو اقتصر على تصميم السابق أي على هذين النوعين لكان هذا التقسيم ناقصاً إذ نجده لا يتناول الأشعار المحكمة المتقنة الأشعار المزخرفة العذبة التي لامعنى تحتها ويعمل أنواعاً أخرى كالأشعار القوية المعنى الضعيفة والمبنى ولذلك الأشعار الضعيفة المعنى والصياغة .
لم يكشف ابن طباطبا بالتقسيم الثنائي السابق بل جاء بتقسيمات أخرى في مواضيع مختلفة من كتابة عندما تحدث عن الأشعار المحكمة النسيج ذكراً أنواع كثيرة منها :

- 1/ القوافي الواقعة في موضوعها .
- 2/ القوافي المتمكنة في موقعها .
- 3/ القوافي الواقعة موقعاً حسن .
- 4/ الأشعار المحكمة الدقيقة المستوفاه المعاني الألفاظ حسن الديباجة .
- 5/ الأشعار التي زادت قريحة قائلها فيها على عقولهم .
- 6/ المعاني المسترذلة الشائعة الألفاظ .
- 7/ الأبيات الرائقة سماعاً الواهية تحصيلاً .
- 8/ الألفاظ المستكرهة النافرة الشائعة للمعاني .
- 9/ الأبيات القبيحة نسجاً وعبرة الصحيحة معنى وحكمة وأصالة (9)

من خلال هذا التقسيم كله هنالك سؤال لا بد من الإجابة عليه. هل تأثر ابن طباطبا بتقسم ابن قتيبة للشعر؟
الشئ الذي لاشك فيه هو أن ابن طباطبا تأثر بابن قتيبة في تقسيم الشعر؛ ولكن لا بد لنا أن نتأكد من الآتي:

1/ هل تابع ابن طباطبا ابن قتيبة وقلده ؟

2/ أم هل خالفه في التقسيم ؟

4/ أم هل زاد التقسيم عن ابن قتيبة ؟

اختلف كثير من النقاد حول التقسيم إذ يرى الدكتور شوقي ضيف أن كلام بن طباطبا يكاد يكون تفسير لفكرة ابن قتيبة ويقول " ويكاد الكتاب من هذا الموضوع الى نهايته يكون تفسيراً لفكرة ابن قتيبة ويقول " ويكاد الكتاب من هذا الموضوع إلى نهايته يكون تفسيراً لفكرة ابن قتيبة وهو تفسير يستمد فيه من كتابات الجاحظ وما وجد بعده من أفكار في حسن البيان وملاحظاته الخاصة في بعض محاسن القول (9)

أما الدكتور محمد السعدي فريود فيقول " وهذه هي ضروب الشعر عند ابن قتيبة وزاد عليها ابن طباطبا ضروباً أخرى ترجع عند التحقيق إلى الضروب الأربعة (8)

أما الدكتور إحسان عباس فيرى أنه لم يقتصر على الأقسام الأربعة التي ذكرها ابن قتيبة وأنه يصدر في حديثه عن تذوق خالص لا علاقة له بالتقسيم المنطقي " (1)

أما الدكتور محمد زغلول سلام فيقول " إنه لم يتبع ابن قتيبة اتباعاً حرفياً لا تحرر فيه بل إنه أورد فهمه الخاص، مع ذكر تقسيم بن قتيبة وأمثلة أخرى مغايرة وأضاف إلى العيوب التي تلحق غير قبج اللفظ أو المعنى عيوباً أخرى " (11)

ومن الواضح أن ابن طباطبا قد استفاد واستفادة كبيرة من تقسيم ابن قتيبية ثم زاد عليه أقسام أخرى مع ملاحظة أنه لم يهتم بالأقسام بحيث يربتها وينظمها، بل أوردتها متناثرة ومتداخلة في كتابه مع الاهتمام بالأمثلة والنماذج، ومن التقسيمات الأخرى التي أوردتها في كتابه نجده قد قسم الشعر إلى ثلاثة أقسام .

1/ الشعر الوجداني .

2/ شعر الحكمة والتجارب الصادقة .

3/ شعر الوصف وبيان أحوال الناس .

رأيه في القدماء والمحدثين :

هنالك آراء كثيرة دائرة حول نظرة النقاد للقدماء والمحدثين إذ نجد أن فريقاً آخر تحرى الإنصاف والدقة كالجاحظ إذ يقول "وقد رأيت أناساً يبهرجون أشعاراً لمولدين ويستقطعون من إدارتها ولم ذلك قط إلا في رواية للشعر بصير بجوهر ما يروى ولو كان له بصر لمعرفة موضع الجيد مما كان وفي أي زمان ومكان (1)

أن ابن طباطبا كان من الذين يعظمون في أشعارهم القدماء ويرى أن أشعارهم هي الأنموذج الذي يجب أن يحتذى به ويساد على طريقه، ولم يقف عند هذا الحد فحسب بل قادر إلى دعوة القارئ لأشعارهم إلى الوقوف وعدم العجلة في تجاوز أشعارهم قديماً يخفي المعنى على القارئ لجهله باحوالهم فيقول: " فاذا إتفق لك من أشعار العرب التي يحتج بها تشبيهه لا تتلقاه بالقبول أو حكاية حبيسة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها وعلمت

أنهم أدق طبعاً من أن يلفظ بكلام لا معنىً تحته , وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملوا في حالاتهم على أشعارهم فلا يمكنك إستنباط ماتحت حكاياتهم لاتفهم مثلها سماعاً (6)

وعلى الرغم من إقتدائه بالأقدمين إلا أنه لم يعمل أمر المحدثين والسؤال الذي طرحه هنا كيف يجهل أمر المحدثين وهو شاعر محدث ؟ ولكن لم يجهل في هذا الأمر بل جاء دفاعه عن القدماء بطريقة منطقية ناتجة عن تجربة عاشها وجاء دفاعه بطريقة مشفوعة بالتجربة وكان منصفاً عادلاً في ذلك .

وعلى الرغم من اعترافه بالمحدثين والثناء عليهم إلا أنه جاء بالفهم واستفاد من القدماء وهذا واضح على أنه متعصب للقدماء والدليل على ذلك قوله " وستعترف في أشعار المولدين بعجائب استفادة ممن تقدمهم، ولفظ في تناول أصولها منهم ولبسوها علي من يعدهم وتكثروا بابتداعها فسلمت لهم عند إدعائها لطيف سحرهم وزخرفتهم لمعانيها (9)

وفي حديثه عن المعاني تجده قد ضيق الباب أمام المحدثين وحاول أن يفهم بأن القدماء سبقوا المحدثين على كل المعاني اللطيفة وهذا الفهم الحديث فهم غير دقيق فإن المعاني ليست بالبسيطة حتى تنفذ , ولكن المشكلة الحقيقية في أن المحدثين قيدوا أنفسهم بمعاني القدماء وأخذوا يعيدونها من غير أن يتذكروا فينتج عن ذلك الشك بأن القدماء قد سبقوهم إلى كل المعاني كما قال ابن طباطبا (المحنة علي شعراء زماننا أشد منها). (9) رآيه في العروض والقوافي :

لم يتجاهل ابن طباطبا أمر العروض والقوافي أو ما يسمى بموسيقى الشعر، فقد أعطاهم مساحة في مقدمة كتابه "عيار الشعر " .

لايفوت علينا أن ننتبه إلى أن لابن طباطبا كتاب في العروض أشار إليه ياقوت الحموي بقوله : " لم يسبق له مثيل " وفي كتابه عيار الشعر تحدث عن العروض بقوله : " صح طبعه ورق ولم يحتج الاستفادة على نظم الشعر بالعروض إلى هي ميزانه ومن اضطرب عليه الذوق لم يستمع من تصحيحه وتقويمه بمعرفة والاستفادة كالطبع الذي لاخلف فيه (9)

أما القافية فقد تحدث عنها بقول "ومن الأبيات المستكرهة الألفاظ القلقة القوافي الردئة الشبح فليست عن عيب يلحقها في حشوها أو قوافيها , أما ألفاظها ومعانيها كقول أبي البقاء الهذلي . ذكرت أني فعاونني صراع الرأس والوصب .

فذكر الرأس مع الصراع حشو .

وفي آخر كتابه "عيار الشعر قام بتقسيم القوافي في الشعر العربي إلى سبعة أقسام وهي على وزن فاعل أو فعال أو مفعّل أو فَعِلَ أو فُعِلَ أو فَعُلَ أو فَعُلَ (9)

وعبر عن ذلك بقوله " وسألت . أسعد الله عن حدود القوافي وعلمي بكل وجه تتصرف قوافي الشعر كلها وتنقسم الي سبعة أقسام (9)

كما لاحظ أيضاً على القافية منها مقيد ومطلق ثم ختم حديثه بقوله " وهذه حدود القوافي التي لم يذكرها أحد ممن تقدم (9)

وفي رأينا أن التقسيم الذي توصل إليه حديثه بأنه لم يسبق إليه ليس فيه فائدة كبيرة .
رأيه في السرقات الأدبية:

أن ظاهرة السرقات الأدبية من الظواهر التي أخذت إهتماماً كبيراً من النقاد في كافة العصور وقد تطور البحث فيها على مرور الزمن من ملحظات بسيطة ونظريات عامة من هذه الملحوظات والنظريات توصل إلى قواعد نقدية تحكم الآخر والاحتواء والتقليد في الشعر بطريقة حسنة وقف القواعد التي وضعت لهذه الظاهرة.

وليس ابن طباطبا أول من يتناول هذه الظاهرة بل سبقه عليها عدد كبير من النقاد السابقين ونذكر منهم علي سبيل المثال لا الحصر، ابن سلام الجمحي وابن قتيبة وجاء من بعدهما علماء طوروا البحث في السرقات الأدبية مثل الأمدي في كتابه الموازنة " والقاضي عبدالعزيز الجرجاني في الوساطة بيت المتنبي وخصومه وأبوهلال العسكري في كتابه "الصناعيين " وابن رشيق القيرواني في " العمدة" وعبدالقاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة " وابن الأثير في كتابه " المثل السائر "

من المناهج والأسس التي وضعها الأخذ الحسن قوله: "ويحتاج من سلك هذا السبيل إلى الطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفي على نقادها والبصر عملها وينفرد بشهدها كان على غيره مسبق إليها فيستعمل المعاني المأخوذة من غير الحسن الذي تناولها منه (9)

وقد علق علي هذا الكلام الدكتور إحسان عباس بقوله " إن من يعلم الشاعر كيف يصنع قصيدته بيتا بيتا بل كلمة لا بد له من أن يعلمه طريقة السرقة لا نبال فيها حد السرقة (9)

ومن خلال حديث ابن طباطبا عن الأخذ الحسن فانه بهذا يصنع قواعد للأخذ الحسن هي :

1/ استعمال المعاني المأخوذة في غير الحسن الذي أخذت منه من ذلك قوله " فيستعمل المعاني المأخوذة من غير الحسن الذي تناولها منه (9)

2/ الطاف الحيل في الاخذ وعدم إظهارها بقول " ويحتاج من سلك السبيل الي النطق الحيلة وتدقيق النظر. (9)

3/ نظم المنثور إلى الاستعارة من الرسائل والخطب بقوله " فإن وجد المعني اللطيف من المنثور من الكلام في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان كمادة قد أضحى أحسن بعدم الاستعجال بإبعاده والطعن فيه

بل من الواجب نفهم معناه ومرماه ولا ينسى أن للعرب صفات القريحة ورقة الطبع (9) آراؤه البلاغية :

وعلى الرغم من أن ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر له آراء نقدية , لكنه لم يهمل البلاغة حيث أورد في بعض أرائه البلاغية بصورة محصورة في موضوع واحد من موضوعات علم البيان وهو التنبيه إذ نجده تحدث عن التنبيه في مواضيع متفرقة في كتابه عيار الشعر حيث عقد فصلاً كاملاً لهذا الموضوع . وبما أن ابن طباطبا عقد فصلاً للتنبيه قاده النقاد الذين تناولها الكتاب . ومن هؤلاء النقاد الدكتور شوقي ضيف إذ يقول " ولا يلبث أن يحدث عن وجود التشبيه وكأنه يعده جوهر الشعر وليه ومبحثه فيه يعد أهم مبحث في كتاب يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها (9) ويقول الدكتور بدوي طبانة " وقد تحدث عن طريقة العرب في التنبيه وإنتراعه من بيناتهم وحياتهم من كلام نقدي بديع (4)

ضروب التشبيه عند ابن طباطبا :

جعل ابن طباطبا للتشبيه ضروباً كثيرة , وفي كثير من الأحيان تقسيمه يقوم على وجه التشبيه . ومن ملاحظاته أن التشبيه قد يكون في أمر واحد وقد يكون في أكثر من أمر ومن حيث الضروب التي جعلها ابن طباطبا للتشبيه هي :

1/ تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة .

2/ تشبيه الشيء بالشيء في الحركة ببطء وسرعة .

3/ تشبيه الشيء بالمعنى .

4/ تشبيه الشيء بالشيء لونا .

5/ لتنبية الشيء بالشيء صوتاً .

حيث وضح هذه تنبيهات بقوله " التشبيهات على ضروب مختلفة فمنها تشبيه الشيء صورة وهيئة ومنها تنبيه به معنى ومنها تشبيه به لونا ، ومنها تشبيه به صوتاً وربما امتزج بهذه المعاني بعضها ببعض فإذا اتفقت في شيء للتشبيه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوي التشبيه و تأكد الصدق فيه و حسن الشعريه للشواهد الكثيرة المؤيدة له على من كان قبلهم لانهم و قد سبقوا إلى كل معنى بديع اللفظ فصيح صله لطيفه و خلاهه ساحرة " (9) و من خلال دفاع ابن طباطبا عن القدماء هنالك سؤال يجب الإجابة عنه بوضوح و هو :

هل يعتبر ابن طباطبا المحدثين سرقوا معاني القدماء؟

في حقيقته الأمر أن ابن طباطبا موقفه من الأخذ من القدماء يعتبره سرقة إلا إذا جاء التعبير عن المعاني بطريقه جديده و دفاع ابن طباطبا عن القدماء ناتج عن اعتباره أن شعر القدماء ناتج عن طبع غير متكلف على عكس المحدثين فان شعرهم متكلف إلى حد كبير. و على الرغم من دفاعه الشديد عن القدماء إلا أنه وضع مميزات يمتاز بها شعر المحدثين فكانت في النقاط التالية :

يتميز شعر المحدثين عن القدماء في إجاده التخلص و الانتقال من موضوع إلى آخر و من غرض إلى غرض يرى أن حسن التخلص من المميزات التي يمتاز بها المحدثين ... و عن حسن التخلص قال : "و من الأبيات التي تخلص منها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك و لطفوا من صله ما بعدها بها فصارت غير منطقية عنها لمن ما ابدعته المحدثون من الشعراء دون من تقدمها " (9) و في هذه النقطة وضح ابن طباطبا كيف كانت كيف ينتقلون من موضوع إلى آخر و من غرض إلى غرض و هذا غير نهايته بحسن و إجاده الربط بين الأغراض و ارد بعض الأمثلة على ذلك , أما عن المحدثين قال ابن طباطبا : "فسلك المحدثين غير هذا السبيل و لطفوا القول من معنى التخلص إلى المعاني التي أرادوها (9)

و هذا لا يعني أن القدماء لا يجيدون التخلص كلهم بل كان هنالك من يجيد التخلص في ذلك قال ابو هلال العسكري: (فأما التخلص المتصل بها قبله فقليل في أشعارهم) (14)

تحدث ابن طباطبا عن أدوات التشبيه و ما تفضل به واحدة على الأخرى مع مراعاة صدق التشبيه وإكتمال الوجه بين الطرفين فقال : فما كان من التشبيه صادقاً قلت في وصفه أوقلت كذا عنه ومافارن الصدق فيه تراه أو تخاله أو يكافي " (9)

وفي حديثه عن أحسن التشبيهات فإنه يقول " وماكان التشابه بين الطرفين فيه كاملاً شاملاً حتى أننا لو عكسنا التشبيه لاستقام الكلام وهذا يعتبره ابن طباطبا من أحسن التشبيهات " أحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقص بل يكون شبيه بصاحبه مثل ويكون مثله متشبهتها به صورة ومعنى (9)

ولا يفوت علينا أن نلاحظ أن المشبه إذا كان مثل المشتبه به في كل شيء لا يصبح التشبيه , إذا أن التشبيه لا يقع بين متحدين في كل الصفات وأدق من كلام ابن طباطبا قول قدامه بن جعفر " وأحسن التشبيه هو ماوقع بين شيئين إشتراكهما في الصفات أكثر من إنفرادهما فيها حتى يدني بها إلى حال الاتحاد (9)

رأيه عن التشبيهات الغريبة :

يمكن إعتباره من أنصار الشعر العربي الاصيل ويرى أن مافيه من غرابة راجع إلى إختلاف طبيعة العصر وبالتالي تؤدي إلى عدم فهم الشيء المراد منه التنبيه على وجه الدقة وبذلك يحث ابن طباطبا النقاد إذا ورد عليهم تنبيه غريب

طريقة التشبيه عنده :

قبل الخوض في حديث ابن طباطبا بن عن التشبيه لابد من الحديث عن طريقة الأقدمين في التشبيه :
من المعروف أن الإنسان ابن بيئته وقد لاحظ ابن طباطبا أن العرب السابقين كانت تشبيهاتهم نابعة من بينهم ومن طبائعهم ومشاهداتهم ومداركهم الحسية ولذلك يكون لزما على كل دارس للأدب العربي معرفة أحوال العرب والتشبيهات التي كان يتناولوها إذ يقول في ذلك " وأعلم أن العرب أو عن أشعارهم من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتهما وأدركته عينها وصارت به تجاريتها وهم أهل وبر وصحوتهم البوادي وسقوفهم السماء , فليست تعدوا أوصافهم ماراوه منها وفيها وفي كل واحدة عنها في فصول الزمان على اختلافها من شتاء وصيف وربيع وخريف ومن ماء وهواء ونار وحيل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن وكل ما تولد من وقت تشوئه وفي حال نحوه الي حال انتهائه , فتضمنت أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عينها وحسها ال مافي طياتها وأفسها من محمود الأخلاق ومزومها " (9)
في النقطة الثانية يعتبر ابن طباطبا أن أخذ المعنى والزيادة عليه أو صياغة بصياغة أخرى لا تعد سرقة لأن الشاعر قد تصرف بالزيادة والنقص " وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فابرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعجب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه " (9)

جعل ابن طباطبا الباب مفتوحاً أمام المحدثين في موضوع السرقة وجاء في ذلك مقلداً للقدماء وله رأي في المحدثين فهو يرى القدماء استوفوا الحديث عن المعاني المختلطة ولذلك فهو لا يقف كثيراً في مسألة أخذ المعنى كثيراً، ومن هذه النقطة السابقة هذا لا يعني أن ابن طباطبا أباح السرقة ولكن ناشد الشعراء المحدثين بالاعتداء بأشعار الأقدمين الحسنة منها، والاعتداء هنا ليس المعنى به السرقة ولكن المعنى به الاقتداء والسير على طريقة الأقدمين فهو بذلك يدعو الشعراء إلى فهم المعاني التعمق فيها ثم الاقتداء بها ولذلك أختار أشعار للشعراء من طبقة مجيدة من هذا الكتاب ثم توسع في كتابه الآخر وهو " تهذيب لطبع "

وأشار بقوله : " ولا يغير معاني الشعر علي معاني الشعر فيودعهم شعره ويجزئها في أوزان مخالفة الأوزان الإشعار التي ينالها منها ما يتناوله وتقيهم أن التغيير الألفاظ والأوزان مما يستر سرقة أو يوجب له فضله , بل يديم النظر في الإشعار التي اخترناه لتلصق معانيها بفهمه فإذا جاش فكره بالشعر الذي أدى إلى نتائج استفادة مما نظر فيه من تلك الإشعار فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي نخرجها المعادن , وكمن أغترف من وأد قد دمرته سيول جارية من شعاب مختلفة " (9)

الخاتمة:

بعد توفيق من الله وجهد كبير بذل في هذا السفر القيم توصلت الدراسة إلى عدة نتائج وتوصيات نجلها في

التالي:

أولاً- النتائج:

- أن أخذ المعنى والزيادة عليه أو صياغة بصياغة أخرى لا تعد سرقة.
- أنه أول من جعل للتشبية ضرباً غير المألوفة، كتشبيه الشيء بالشيء (صورة وهيئة)، وتشبيه الشيء بالشيء في (الحركة بظناً وسرعة)، وتشبيه الشيء بالشيء (لونا) وهكذا...
- اهتمام ابن طباطبا بالوزن في الشعر أكثر منه في القافية، وأنَّ اللفظ والمعنى عنده متكاملان كالروح والجسد.

ثانياً-التوصيات:

- توصي الدراسة الباحثين والدارسين إلى أفراد دراسات ووقفات مع هذا الأديب والناقد لاسيما آراؤه البيانية .
- استكشاف ضروب وجماليات التشبيه التي أشار إليها ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر.

المراجع والمصادر :-

- 1/ احسان عباس -تاريخ النقد الأدبي -الطبعة الاولى -دار الامانة -بيروت -1971
- 2/ احمد بدوي - من النقد والأدب ط 5 -مطبعة دار الكتب -القاهرة
- 3/ ارسطو -فن الشعر-تحقيق عبدالرحمن بدوي -دار النهضة -1959 .
- 4/- د بدوي طبانة -علم البيان -الطبعة الثانية
- 5/ الجاحظ- البيان والتبيين -تحقيق عبدالسلام هارون -الطبعة الخامسة -مكتبة الخانجي القاهرة -1985
- 6/ الجاحظ - الحيوان - تحقيق عبدالسلام هارون-الطبعة الاولى -دار الكتاب العربي-بيروت
- 7/ ابن رشيق القيرواني -العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده -تحقيق محمد محي الدين -الطبعة الرابعة-دار الجيل -بيروت -1972-
- 8/ د شوقي ضيف -البلاغة تطور وتاريخ -دار المعارف -القاهرة -مصر 1965م
- 9/ ابن طباطبا -عيار الشعر-تحقيق طه الحاجري -محمد زعلول سلام -الطبعة الاولى -المكتبة التجارية -القاهرة -1965

- 10/ قدامه ابن جعفر -نقد الشعر - . تحقيق كمال مصطفى الطبعة الثانية -دار السعادة القاهرة 1963
- 11 / د محمد زغلول سلام -تاريخ النقد الأدبي-دار المعارف -القاهرة
- 12/ د محمد السعدي فرهود قضايا النقد الأدبي —الطبعة الاولى -زهران القاهرة 1968
- 13/ د محمد غنيمي هلال- النقد الأدبي الحديث -دار المعارف القاهرة
- 14/ أبو هلال العسكري -الصناعتين-تحقيق البجاوي -الطبعة الأولى -دار إحياء الكتب القاهرة مصر 1951م